السخرية وصيغها في رسالة الغفران

م.م حافظ محمد عباس الشمري م.م عبد علي عبيد علي الشمري

السخرية لغة واصطلاحاً

السخرية: مصدر من سَخر، نقول سخر منه وبه، استهزأ، وهو السُخريُ أيضاً، ويكون لغتاً, مثل قولك: هم لك سِخريُ، وسُخريةً، والسُخَرةُ: الضُحكة. والسخرةُ: مما تسخرت من خادم ودابة بلا أجر ولا ثمن. تقول: هم لك سخريا[١] قال تعالى: ((فأ تخذتموهُم سِخريًا حتى أنسَوْكم ذكري))[٢]، أي: سُخريةً، من تسَخَرُ الخَوَل[٣] وما سواه، وسخرياً في الاستهزاء[٤]. والسخرية: من (سَخِرَ منه وبه سَخْراً, وسَخَراً, ومَسْخراً وسُخراً (بالضمه) وسُخرةً، وسِخريا، وسُخرياً، وسُخريةً: هَزيء به)[٥].

اما في الاصطلاح: فقد حاول بعض الباحثين ايجاد تعريف اصطلاحي للسخرية، إذ نقل لنا الدكتور نعمان محمد امين طه ما توصل اليه بعض الكتاب الاوربيين، فيقول احدهم هي: ((طريقة من طرق التعبير يَستعمل فيها الشخص الفاظاً تقلب المعنى الى عكس ما يقصده المتكلم حقيقة، وهي صورة من صور الفكاهة، تعرض السلوك المعوج او الاخطاء، التي إن فطن اليها بالمعرفة فنان موهوب قام لمعرفة واحسن عرضها، تكون حينئذ في يده سلاحا مميتا))[٦].

وقال اخر: ((هي طريقة التهكم المرير والقذر أو الهجاء الذي يظهر فيه المعنى بعكس ما يظنه الإنسان، وربما كانت أعظم صور البلاغة عنفا وإخافة وفتكا))[٧].

وقال ثالث ((السخرية سلاح شائع عند جميع الكتاب والمؤلفين الكبار يأخذون أنفسهم بممارستها، وهي تظهرفي شعر الملاحم وفي التراجيديا، فضلا عن الكوميديا، والخطباء يستمدون منها النبرات المؤثرة، وكذلك تتخذ البلاغة منها سلاحا اشد فتكا، لا يمكن إغفاله أو الاستهانة به، وتكون السخرية في بعض الأحيان سمة دالة على قمة اليأس))[٨].

ويعرف الدكتور نعمان السخرية ((بأنها: النقد الضحك او التجريح الهازئ وغرض الساخر هو النقد أولا، والإضحاك ثانيا, وهو تصوير الإنسان تصويرا مضحكا، اما بوصفه بصورة مضحكة بواسطة التشويه الذي لا يصل إلى حد الإيلام، أو تكبير العيوب الجسمية، او العضوية، أو الحركية، او العقلية، أو ما فيه من عيوب حين سلوكه مع المجتمع، وكل ذلك بطريقة خاصة غير مباشرة))[٩].

السخرية والفكاهة:

ان السخرية تستند الى عناصر، منها الدقة في الاحساس والرهافة في الذوق، والقوة في الشعور، وبذلك تتوافر في الكتاب الملكة المضحكة التي تعد مفتاح الباب الى السخرية، إذ ان ((كتاب الاوصاف المضحكة يعتمدون في نكاتهم على ملكات كثيرة قد يناقض بعضها بعضا، وقد لاتجتمع منها ملكتان لكاتب واحد، فمنهم من يعتمد على ملكة السخر، وهو يحتاج الى الذكاء وادراك الفروق، وقد يصحبه شيء من الجد، ومنهم من يعتمد على الدعابة وهي تحتاج الى مرح في الطبع، مرجعه في الغالب الى المزاح، لا الى الدرس والتعليم، ومنهم من يعتمد على الهزل، وهو خلق ينشأ عن الجهل بتقدير عظائم الاشياء، وقد يستدل الضحك من خلال الخطوب، ومنهم من يعتمد على العطف، وهو يرضي الانسان عند نقائض الناس ... وخير هذه الملكات واعلاها ملكة السخرية، يمازجها العطف، وهي عبقرية لاتقل في اقتدارها على تجميل الحياة، وتثقيف النفوس والاذواق عن عبقرية الفلسفة وعبقرية الشعر والتلحين))[١٠].

أما الفكاهة فلها معان متشعبة متشابكة، وهي من الألفاظ التي يصعب على الباحث أن يقف على تعريف محدد لها، ولعل سر ذلك يرجع إلى اشتمالها - فيما يبدو – على الدعابة، والمزاح, والتهكم، والسخرية، والنكتة، والهزل.

ومن الملاحظ ان السخرية تحتل مكانا متقدما وراقيا في فن الفكاهة، لما تنطوي عليه من ذكاء قد لا يتطلب في النادرة او الدعابة، إذ انها ((ارقى أنواع الفكاهة، لما تحتاج من ذكاء وخفاء ومكر، وهي لذلك اداة دقيقة في

ايدي الفلاسفة، والكتاب الذين يهزؤون بالعقائد والخرافات ويستخدمها الساسة للنكاية بخصومهم، وهي حينئذ تكون لذعا خالصا وقد يستخدم في رقة))[١١].

اما الضحك فهو جسم حي له اوجه مختلفة، ومن بين هذه الاوجه الفكاهة والسخرية[١٢]، ولكن الناس كثيرا ما يخلطون بين هذين الوجهين ولا يكادون يفرقون بينهما، فالفكاهة وجه قائم على الاضحاك، إذ يروى عن احد المفرطين في شرب الخمرة، مثلا، أن قال له احدهم، إن الخمرة انتحار بطيء . فأجاب بسرعة ولماذا تريدونني ان انتحر بسرعة ؟![١٣].

أما السخرية، فهي وجه قائم على اللذع والإيلام، إذ يروى أن احد الأمراء التقى يوما بغريب يشبهه تمام الشبه، فبادره بقوله: ((هل كانت أمك يا هذا تقيم في البلاط الملكي!؟ فأجاب الغريب ببديهة حاضرة، كلا يا سيدي، بل أبي!!))[١٤]. ومن ذلك يتضح أن المنبع الذي تنبع منه السخرية هو الضحك، وغايتها الفكاهة اللاذعة.

السخرية والهجاء:

تلتقي السخرية مع الهجاء وظيفيا، في التحقير والازدراء، وكل ما يؤدي إلى إثارة مشاعر الغضب، والألم بالألفاظ اللاذعة، وتختلف السخرية مع الهجاء من ناحية المادة التي تشتمل عليها كل منهما، وذلك لان الهجاء أسلوب مباشر في الهجوم على المهجو، إذ يتعمد الشاعر فيه ذكر ((أضداد الفضائل على الحقيقة فجعلها فيهم، لان الغدر ضد الوفاء، والفجور ضد العفة، والبخل ضد الجود))[١٥].

كما نجد إلى جانب ذلك التهكم الذي يعد واجهة من واجهات الهجاء الذي يعبث فيه صاحبه بالمهجو عبثا يخلو من الرقة والخفه، ويطفح بالفظاظة والخشونه[١٦].

أما السخرية فهي أسلوب غير مباشر في الهجوم على الهجو لأنها: ((تشيع فيما حولها جو المرح الذي يؤمن الشخص الضعيف من غائلة المعتدي، فتخف وطأة غضبه ولو إلى حين بسبب السخرية))[١٧] وان الفرق بين السخرية والتهكم يمكن حصره في أن السخرية حالة نفسية هادئة أميل إلى الطبع الفلسفي منها إلى طبع الشعراء وقد تمثل جانبا من معاناة الناس من ألامهم وهمومهم فيلجؤون إلى هذا الأسلوب في محاولة تخفيف تلك الآلام

وتهوينها. أما التهكم فهو كما يبدو يصدر عن نفوس عنيفة لا ترحم حمق الغير او جهله، ومن الملاحظ اننا نستطيع القول ان السخرية تمثل النفس وهي منها واليها في عامتها، اما التهكم فيستعمل سلاحا قويا ضد الآخرين[١٨].

أبو العلاء المعري والسخرية في رسالة الغفران:

عاش أبو العلاء المعري في المرحلة المحصورة بين الأعوام ٣٦٣هـ - ٤٤٩هـ وكان شاعرا فيلسوفا، ويبدو انه من كبار الساخرين من خلال آثاره وتراثه الذي كتبه بعد مرحلة الشباب، إذ امتاز بأسلوبه الساخر ذي الدعابة الدكناء التي لم يخل منها حتى اسمه، الذي يقول فيه[١٩]: دُعيت ابا العلاء وذاك مين ولكن الصحيح ابو النزول[٢٠].

يعد ابو العلاء المعري من الشخصيات الساخرة الممتازة، اذ اكتملت هذه الشخصية، ووصل من أدبها ما استطاع النقاد ان يلقوا به الضوء على تراثه الساخر، ولاسيما رسالة الغفران، تلك الرسالة التي شكلت السخرية فيها عمودها الفقري، إذ جاءت الرسالة كلها في وضعها وتركيبها وحسن معانيها المريبة، وما حملته من مغاز بعيدة ومضامين خفية، ما هي إلا ضحكة واحدة متصلة, كان يجهر بها المعري حينا، ويوري بها أحيانا، غارقا في السخرية[٢١]. فالرسالة كلها ضحكة كبرى، بل قهقهة مكتومة تصدر عن أبي العلاء المعري[٢٢]، فكانت السخرية لُحمة رسالة الغفران، وسداها من خيوط هذه السخرية[٢٣]، ويبدو ان سخرية أبي العلاء المعري في رسالته لها أسبابها ودوافعها التي يذكرها نفسه بقوله:

أراني في الثلاثة من سجوني فلا تسأل عن النبأ الخبيث
لفقدي ناظري ولزوم بيتي وكون النفس في الجسم الخبيث

إذ كان من الممكن لهذه السجون الثلاثة التي ذكرها ان يكون لها أثرها في تكوين شخصية أبي العلاء، ومزاجه السوداوي، والغضب العارم، والمرارة التي تنفخ سمومها في وجه الآخرين. إلا ان هذه السجون قد تكون تطهيرا له من أوضار الحياة وإبعاد له عن هوس الدنيا وفتنتها[٢٤] إذ كان المعري يمتاز بذكاء حاد وملكات فريدة، وقدرة على الإجادة والبراعة تفرد

بها على غيره من الناس، الى جانب اعتداد بالنفس شعورا منه بالتميز والتفوق[٢٥].

وقبل الحديث عن السخرية في رسالة الغفران، يبدو لنا من المفيد أن نذكر أن هذه الرسالة – أي رسالة الغفران – هي رد على رسالة ابن القارح التي بعث بها الى ابي العلاء وزعم فيها ان أبا الفرج الزهرجي كاتب الدولة قد كتب رسالة استودعها ابن القارح ليوصلها إلى أبي العلاء، إلا أنها سرقت مع ما سرق منه في الطريق، فكتب ابن القارح هذه الرسالة يعتذر فيها لابي العلاء[٢٦].

لقد بدأ المعري في رده على ابن القارح في رسالته مدققا في كل ما تضمنته الرسالة من أفكار، مبتدئا بأسلوب ساخر منذ مطلع الرسالة حتى نهايتها, إذ أمانه – ابن القارح – ثم بعثه، وأخرجه يوم الدين مطوفا به بين الجنة والنار، مطلعا إياه على منع النعيم، وموقفاً إياه على أهوال الجحيم الا انه في كل ذلك لم يكن معنيا بغير الأدب واللغة والنحو وجرائم الاعتقاد، وعذابات الملحدين[٢٧]. إذ لم يسخر أبو العلاء من الناس في حياتهم العادية، ولا من أمالهم ولا أعمالهم فحسب، وإنما سخر من مثلهم العليا في الدين والعقيدة[٢٨]. لقد حاول هذا المبدع الساخر أن يفر من سجونه الثلاثة الى الجحيم والاعراف والجنة، ليعلن رأيه فيما حوله بحرية، بارا بقسمه الشهير[٢٩].

إني وان كنت الأخير زمانه لآت بما لم تستطعه الأوائل

إن ما يسمى سخرية أبي العلاء، ليست شيئا من السخرية، وإنما هي نوع من العبث عند رجل استوى عنده كل شيء، فهو لا يؤمن الا بآلامه، وان طبيعة هذه الآلام حملته لا يعبر عنها الا في خفر وحياء، وذلك لما ابتلى به الانسان من محنة نزلت به فاتصلت بمزاجه الخاص وشخصيته غير الانتقامية، إذ امتدت سخريته إلى الغير برفق وهدوء[٣٠] فاعتزل الناس والحياة، وبقيت حياته الروحية، تتفاعل مع محيطها الإنساني، محققه ما لم يستطع تحقيقه غيره، فاتخذ نشاطه العملي لونا من ألوان العبث والسخرية اللذين كانا من أهم مظاهر رسالة الغفران[٣١].

مظاهر السخرية في رسالة الغفران:

تبين لنا عند قيامنا بمتابعة بعض مظاهر السخرية في رسالة الغفران أن الرسالة قامت على السخرية بل إنها كانت أضحوكة ساخرة كبرى، وندرج فيما يأتي بعض مظاهر السخرية الواردة فيها:

١- الجمل الدعائية التي أوردها كانت مقترنة مع ذكر ابن القارح أينما وردت الإشارة إليه، إذ بلغ عدد مرات تكرارها إحدى وستين مرة[٣٢]، وذلك يؤيد ما ذهب إليه الدكتور محمد مندور من أن سخريته كانت برفق وهدوء.

٢- التلاعب بالألفاظ، ومعاني الألفاظ بأسلوب ينم عن السخرية بمن يتحدث عنه من ذلك مثلا: (المغرم بالعلم)[٣٣]، وكذلك في لقائه بعبيد بن الأبرص ورده التحية, إذ تنم لفظة أغبياء عن سخريته بابن القارح وذلك في قوله ((ثم ينصرف إلى عبيد فإذا هو قد أعطي بقاء التأييد، فيقول: السلام عليك يا أخا بني أسد فيقول: وعليكم السلام – وأهل الجنة أذكياء لا يخالطهم الأغبياء – لعلك تريد ان تسألني بم غفر لك؟))[٣٤].

٣- استخدام الغريب بشكل ينم عن سخرية وتشكيك بإمكانات ابن القارح مثل حمصيص وخربصيص وفصعل[٣٥] ودلت هذه الألفاظ على الهوان وسخف الأمر .

٤- استخدام المعري الاشتقاقات المتعددة للألفاظ فيه, دلالة على قدرات لغوية هائلة ينم عن استخفاف بامكانات ابن القارح في هذا المجال، كما في لفظة (حَمْت)[٣٦].

٥- ادخال ابن القارح على نجيب من نجائب الجنة. مخلوق من ياقوت فيطوف به في الجنة ومعه الخمر، فيسير من دون منهج معين او غاية معينة، فيه دلالة على الاستخفاف من ابن القارح ومكانته في المجتمع .(٣٧)

٦- التعجب من وجود بعض الأشخاص (من شعراء الجاهلين) في الجنة، يحمل سخرية عامه وسخرية من ثقافة واعتقاد ابن القارح، وكذلك يحمل معنى الاعتراض الضمني على مشيئة الله – جل وعلا – وكذلك طرح السؤال الانكاري الذي يحمل معنى الاعتراض – بم غفر لهما !؟ - يحمل سخرية كبرى ايضا[٣٨].

٧- رفض ابن القارح ركوب الخيل، او الاشارة الى عدم معرفته بركوب الخيل، تعريض به وتشكيك في صدقه و امكاناته[٣٩].

٨- يشكك ويسخر من ثقافة ابن القارح، إذ يحاول المعري ان يقنعنا ان ابن القارح لا يعلم ان اهل الجنة يعيشون في سلام، وانها لاجدال فيها ولا خصام بين اهلها وسكنتها، وذلك عندما يشير الى المخاصمة بين الاعشى، والنابغه الجعدي التي وصلت الى درجة السجال والسباب، وكذلك المخاصمة بين الناس وابي علي الفارسي النحوي في قضايا نحوية، ولجوء ابي علي الفارسي عندما يرى ابن القارح إذ يشير اليه بيده(٤٠).

٩- اتهام سيبويه بالوهم فيه سخرية بابن القارح، وكذلك ذكر قضية اجتماع الرواة في طرفة عين، ونفي النابغة ان احداً تطوع لينسب اليه اشياء لم يقلها وانما ذكر على سبيل الغلط والتوهم، وذلك في معرض تصحيحه لما طرحه ابن القارح بأن بعض الرواة تطوعوا لينسبوا اليه، تحمل سخرية من ابن القارح بأن له القدرة على توجيه الاتهامات الى الناس بلا دليل(٤١).

١٠- ذكرالمعري ان ابن القارح لا يعرف سبب وجود حيوانات الصيد والطيور في الجنة واعتراضه على الارادة الربانية بأن يميز بين حيوانات واطيار الجنة الصالحة للصيد من غيرها، هي بحد ذاتها سخرية من ابن القارح، وقد تكون سخرية عامة وتدخل في شؤون الارادة الربانية(٤٢).

١١- طريقة الحمل على ظهر الجنية لتجوز فيه الصراط المستقيم (زقفونة) وكذلك ذكر لفظة (الجحجلول)، وهي حسب ظننا من الالعاب التي تؤديها الصبيان، فيها سخريه بابن القارح(٤٣).

١٢- في حديثه مع رضوان – خازن الجنة - في الامانة، ورفض رضوان اخراج شيء من الجنة إذ ان ابن القارح طلب منه ان يعطيه ورقة من شجر الصفصاف لانه اضاع كتاب التوبة الذي كان معه، فيه اشارة الى ان الوزير ابن القارح لديه الاستعداد على اخذ أشياء ليست له، وهذا تشكيك بأمانته، وان اضاعته لكتاب توبته كما أضاع الرسالة التي حملها لابي العلاء في الدنيا دليل على عدم اهتمامه واهماله، وفي ذلك اشارة الى انه لا يستحق ان يؤتمن على شيء أو يتحمل مسؤولية تخص الرعية والناس جميعا (٤٤).

١٣- اقتراح ابن القارح باستخدام جوار تعمل على المطاحن، وتنفيذ هذا الاقتراح من لدن الباري -عز وجل – فيه سخرية بالوزير(٤٥).

١٤- التفكير بالجارية التي تخرج من اصل ثمار الجنة وتكون أجمل مخلوقات الجنة، وتؤكد لابن القارح بأنها موعودة به قبل ان يخلق الله السماوات والأرض بأربعة آلاف سنة، إذ يسجد شكرا له، وينشغل فكره بها في اثناء السجود . وتركه للسجود ينظر إلى أرداف تلك الجارية، تشكيك وسخرية في عبادة ابن القارح والتزامه بآداب الصلاة[٤٦].

١٥- وصفه بأنه أدب الجن، يحمل معنى السخرية[٤٧].

١٦- السخرية والاستخفاف واضحان من لدن ابي العلاء، وذلك في رد ابن القارح على إبليس بأنه لا يستطيع ان يقدم له عونا، لأنه – ابن القارح من اهل الجنة وأهل الجنة لا يعينون أهل النار في شيء[٤٨], إذ ان في ذلك إشارة الى ان الوزير لو لم يكن في الجنة لكان بالإمكان أن يقدم لإبليس عونا.

١٧- الاستخفاف والسخرية في سؤال ابليس لابن القارح، هل اهل الجنة يفعلون في الولدان المخلدين فعل قوم لوط في الدنيا[٤٩].

انواع السخرية:

وردت في رسالة الغفران انواع عدة من السخرية، منها :

١- السخرية الادبية:

عاش الشاعر الكفيف في البيئة الادبية وجودا قلقا، وصراعا عنيفا من اجل البقاء، واثبات الذات الادبية، في عالم واسع من الشعراء المبصرين، الذين لايعيش بينهم الا القوي، او الاقوى، ولا يملك ابو العلاء في هذا الصراع سلاحا أقوى من اللسان والبيان والقدرة الادبية، ويبدو ان الشعور الطبيعي بالخطر. والخوف، وترقب الاذى، جعلت السخرية . عموما، ولا سيما السخرية الادبية فعلا مشروعا، وسلاحا مقبولا، لا يملك ابو العلاء – الكفيف- امضى منه في الدفاع[٥٠] إذ كانت سخريته الادبية اعمق مضمونا، وأشد تأثيراً، لانها كانت فنا عقليا ابتغى منه الدفاع والتقويم في آن واحد، وهي عنده سلاح الاديب الملتزم الذي سخر ادبه – بعد عزلته – لخدمة الاصلاح الاخلاقي[٥١]. تناول المعري في سخريته الأدبية من خلال مسخرته الأولى – ابن القارح – النحاة واللغويين، والشعراء.

اما النحاة واللغويون، فكان يرى انهم اوغروا النحو، وعقدوا مسائله واحالوه الى طلاسم، والغاز، بعد أن كان حلو المجتنى، يسير التناول يلبي حاجات النطق، إذ عقد في رسالته مجالس ساخرة، وشغلهم بمجموعة من المسائل النحوية والصرفية، وصورهم في الفردوس متحابين بعد ان كانوا في الدار العاجلة متباغضين[٥٢].

اما الشعراء، فسخر من شعرهم الشكلي ذي الجعجعة اللفظية، حين وضع على لسان (العفريت) ابي هدرش الخيثعور – احد بني الشيصبان - قصيدتين، الاولى في عشرين بيتا، ومطلعها[٥٣].

حَمِدْتُ مَنْ حَط أوزاري ومزقها عني، فاصبح ذنبي الآن مغفورا

والثانية تشتمل على تسعة وتسعين بيتا، ومطلعها[٥٤]:

مكة اقوت من ((بني الدَرْدَبيس)) فما لجنىً بـها من حسيسْ

إذ تتجلى براعة ابي العلاء في القصيدتين، ودقة احساسه وسلامة ذوقه على نحو رائع وغير مألوف، وهو ينطق بلسان جني، ويروي مغامراته ويقص غزواته في بني الانسان، فيخيل عند قراءة القصيدة انها لعفريت حقا، وانها من شعر الجن صدقا، من حيث القوافي، والالفاظ والموسيقى، والمعاني، معتمدا في ذلك على ما واتته مقدرته الشعرية دون تعثر، وما اسعفته ثروته اللغوية فاختار الفاظا غريبة ذات رنين خاص، مثل يغبور، الهيق، الطنوب، عمروسا، فرفورا، الدردبيس، رديس، طسيس، غبيس، عرمسيس، يعاليل، نكيس، الانفليس، الخفنيس، وكأن هذه الالفاظ هي من لغة الجن . جاعلا منها وسيلة للسخرية من امكانات ابن القارح[٥٥] هذا من جهة .اما من جهة اخرى فقد عمد ابو العلاء الى عقد لقاءات في الدار الفانية وبحضور ابن القارح بين عدد من الشعراء، نتج عنها عدد من المساجلات والمخاصمات التي انتهت في بعض الاحيان بالقطيعة، من ذلك مثلا المخاصمة بين الاعشى، والنابغة الجعدي، وكذلك اعتراض اوس بن حجر على ادخال النابغة الذبياني في الجنة، وادخاله هو في النار[٥٦].

٢- السخرية الاجتماعية :

لعل هذا النوع من السخرية يعد عند المكفوفين من اهم انواع السخرية، فصاحب هذه العاهة . كما يبدو لا يستطيع التكيف الاجتماعي بشكل

تام بسبب قلقه وخوفه وتشاؤمه، فهو يكون متحفزا، ومتهيئا للدفاع عن نفسه للاسباب المذكورة، إذ إن التعامل مع الكفيف يحتاج الى دراية وعلم ومعرفة باحواله النفسية قل توافرها وندر وجودها عند جميع الناس. ويعتقد الشاعر الكفيف –في الغالب – ان عالم المبصرين عالم تضليل، وخداع لان الإبصار يوفر للمبصرين امكانات هذا التضليل، وأدواته، مما لاطاقة لكفيف عليه، ولا قدرة له على فعله. فجعل ابو العلاء السخرية موجهة لأمة جردها من الحلوم، وجعلها ضأناً تائهة لاراعي لها[٥٧].

يا أمة من سفاه لا حلوم لها ما أنت إلا كضأن غاب راعيها

إن سخرية المعري اتجهت الى النقد والتقويم، إذ إن معظمها سخرية عقلية، ونقد فكري اهتم بالجانب العملي من السلوك البشري، فكانت سخرية ابي العلاء واسعة ممتدة الى كل مجال، إذ اصبحت مبعث تأمل ومدعاة تفكير فتناول الاخلاق الاجتماعية، منعطفا من خلالها على الناحية العقلية والنفسية، دعما للقيمة الاجتماعية[٥٨] ويعتقد المعري أن الخير والشر، والجمال والقبح ذاتية في الأشياء, يدركها العقل. ومن نماذج السخرية الاجتماعية في رسالة الغفران، ان ابن القارح يطلع على النار فيرى ابليس في العذاب، فيجري الحوار الاتي بينهما: ((الحمد لله الذي امكن منك يا عدو الله وعدو اوليائه لقد أهلكت من بني ((ادم)) طوائف لا يعلم عددها الا الله . فيقول من الرجل ؟ فيقول: انا فلان ابن فلان من اهل حلب كانت صناعتي الادب، اتقرب به الى الملوك فيقول: بئس الصناعة، انها غفة من العيش لا يتسع بها العيال، وانها لمزلةُ بالقدم وكم أهلكت مثلك :... وان لي اليك حاجة، فإن قضيتها شكرتك يد المنون... ولكن اسألك عن خبر تخبرني به: ان الخمر حرمت عليكم في الدنيا واحلت لكم في الاخرة، فهل يفعل اهل الجنة بالولدان المخلدين، فعل اهل القريات؟))[٥٩] يعني قوم لوط عليه السلام.

ان الذي يقرأ هذا النص بتمعن يستطيع ان يسجل على ابي العلاء سخريته الاجتماعية في المواضع الآتية:

١- التشفي بإبليس – لعنة الله عليه – من لدن ابن القارح، وذلك بقوله الحمد لله الذي أمكن منك يا عدو الله وعدو اوليائه . على ان هذا التشفي لم يُرد منه

ابو العلاء إبليس ذلك لان إبليس عصى ربه فاستحق العقاب، وانما اراد بها انها ظاهرة اجتماعية يفعلها البشر في كل حين ومكان.

٢- الاستهانة بالصنعة على لسان إبليس، وهي ظاهرة اجتماعية أيضا يمارسها الكثير من الناس.

٣- الاستهانة بالمركز الاجتماعي والقيمة الاعتبارية للإنسان إذ ان الوقوف على أبواب الملوك والتقرب اليهم يحمل نوعا من أنواع الإذلال والتذلل، وبذلك يحاول ابو العلاء ان يجعل من سخريته وسيلة للإصلاح الاجتماعي او لنقل الرفض الاجتماعي لكثير من سلوكيات البشر.

ومن نماذج السخرية الاجتماعية في رسالة الغفران ألفاظ السباب والشتيمة التي افتعلها بين بعض العلماء في الجنة، مما يشير إلى ان هذه السلوكيات الاجتماعية كانت شائعة وفي مختلف العصور, وان لأبي العلاء موقفاً نفسيا واجتماعيا منها, اذ جاء في الرسالة: ((قال أبو عثمان المازني لعبد الملك بن قريب الأصمعي: يا أبا سعيد ما وزن إوزة ؟ فيقول الأصمعي: ألي تعرض بهذا يا فصعل ؟))[٦٠] .

٣- السخرية العامة :

استطاع المعري ان يجعل من السخرية في رسالته منهجا في النقد والتقويم والمواجهة، في نقد الخرافات والأفكار والفلسفات، كونه مفكرا عمليا أخلاقي المنهج، إذ كان يعتقد ان الناس يعانون من أزمة أخلاقية. وان هذا الاضطراب والفساد الذي يحس به هو نتيجة لانعدام او لندرة احترام القيم الرفيعة والمثل الإنسانية النبيلة. وان حقيقة الدين وجوهره عنده هي مكارم الاخلاق[٦١]. ومن نماذج السخرية العامة . التي يمكن ان نشير اليها في هذا الموضع مثلا: الحوار الذي صنعه ابو العلاء بين ابي بصير(الاعشى) وابي ليلى (النابغة الجعدي), فيقول النابغة رادا على الأعشى: ((اتكلمني بمثل هذا الكلام ياخليع بني ضبيعة، وقد مت كافرا، وأقررت على نفسك بالفاحشة، وأنا لقيت النبي (صلى الله عليه واله وسلم)... أغرَك أن عدك بعض الجهال رابع الشعراء الاربعة ؟[٦٢] وكذب مفضلك، واني لأطول منك نفسا واكثر تصرفا. ولقد بلغت بعدد البيوت ما لم يبلغه احد من العرب قبلي وانت لاه بعفارتك تفتري على كرائم قومك، وإن صدقت . فخزيا لك ولمقارك !...))[٦٣].

وورد في الرسالة ايضا قول المعري: ((ويثب نابغة بني جعدة على أبي بصير فيضربه بكوز من الذهب . فيقول - أصلح الله به وعلى يديه: لا عربدة في الجنان إنما يعرف ذلك في الدار الفانية بين السفِلَةِ والهَجاج ....))[٦٤]. أذ يلاحظ من خلال التمعن في النص المذكور ان شاعرنا الكفيف قد شخص تجاوز الإنسان القيم الرفيعة والمثل الإنسانية، وقدرة هذا الإنسان على انتهاك كرامة الاخرين وقيمهم، وتأهبه لارتكاب الفاحشة من خلال إشارته الى الخلاعة والكفر، والإقرار بالفاحشة، والا فتراء على أعراض الناس، سواء أكانت صدقا ام كذبا تقولا وكذلك استعداد الإنسان لتوجيه التهم الى العلماء والمفكرين ووصفهم بالجهالة وهو بذلك يسجل سخريته اللاذعة للحياة العامة في المجتمع .

دوافع السخرية:

لا بد لنا ان نتحدث عن دوافع السخرية في رسالة الغفران . إذ لم يصرح بالدافع الحقيقي اليها، على الرغم من تميزه في هذه الرسالة بروعة الخيال، وعبقرية السخرية . ويمكن ان نقف عند بعض دوافع السخرية التي تكمن في ثلاثة امور:

الاول: الشعور النادر بالواجب :

على الرغم من الفاقه وشظف العيش، فإن المعري كان شديد الحرص على كرامته ان ينال منها نائل، او ان تمسها دسيسة دساس او مكر ماكر أو فرية حاسد متطاول . فعرف عنه انه يعف عما يشتهي من لحم الحيوان والبانه وينهى عن قتل البرغوث، او ان يفجع النحل في العسل، ويعد ذلك من باب البغي والتجاوز على حقوق المخلوقات الاخرى، وهو لا يريد ان يدين نفسه بما يدين به الاخرين[٦٥].

الثاني: الاستخفاف بالدنيا

عرف ابو العلاء المعري بتشاؤمه، وان المتشائمين مستخفون بالدنيا وما فيها، ولعل السخرية والاستخفاف يربط بينهما رابط قوي، فمن استخف بشيء، سخر منه، إذ انهم لايرون في الدنيا نعيما يستحق الاهتمام والحرص,

ولا حاجة تستحق السعي اليها[٦٦]. وفي ذلك مثلا، يقول ابو العلاء: ((ويخطر في نفسه وهو ساجد، أن تلك الجارية – على حسنها – ضاوية، فيرفع رأسه من السجود وقد صار من ورائها ردف يضاهي كثبان عالج... فيُهال من قدرة الله اللطيف الخبير...))[٦٧] فهو يسخر من الإنسان وما يجني من حطام هذه الدنيا إذ يكدح، ويتحمل المعاصي والآثام حتى في لحظات سجوده واثبات عبوديته لله – سبحانه وتعالى – مقرا في الظاهر بالعبودية مطبقا في اداء الفرائض مبطنا الظلم وتحمل الاثام. وهذا منتهى الاستخفاف بالدنيا والسخرية مما تحويه.

الثالث :دقة الاحساس:

كان ابو العلاء المعري شديد الاحتفاظ برصانته وابائه مكبراً للوقار, وكان مع عزلته في داره – اذا اراد ان يأكل شيئا ينتحي جانبا من الدار مخافة ان يبدو منه شيء معيبٌ في اثناء ذلك او من جرائه، وكان يشتهي الخمر الا ان ما يثنيه عنها اعتقاده انها تحل عقال العقل وتطلق من هذر اللسان . وكان يخشى ان يطول به العمر إذ كان اكثر ما يخشاه من العمر ان يهرم فيخرف فيعود اضحوكة لمن يراه[٦٨].

ان دقة احساسه وذكائه، ومعرفته بحقائق الامور دفعه الى جعل ابن القارح اضحوكة العصر، ووسيلة السخرية والاستخفاف، فاقترنت جمله الدعائية بابن القارح احدى وستين مرة في رده غير المباشرعلى الرسالة فقط فضلا عن استخدامه للكثير من الالفاظ المضحكة التي تثير السخرية والاستخفاف كذكر، حمصيص، وخربصيص، والحمل على الظهر(زقفونه) والجحجلول ... وغيرها وكذلك بوصفه بأدب الجن . على الرغم من ان ابن القارح انسياً وليس جنياً، فلما ينسب تفوقه على الجن، وليس على الانس. الا يعني ذلك منتهى درجات السخرية والاستخفاف القائمه على دقة الاحساس الفكري والثقافي؟!

اهم العناصر الفنية في رسالة الغفران

ان الدارس لرسالة الغفران تظهر أمامه جملة من العناصر الفنية التي قامت عليها هذه اللوحات الفنية الرائدة في الأدب العربي غير المسبوقة، ومن اهم هذه العناصر:

١- **الألفاظ المضحكة**: ظهرت في السخرية العلائية الفاظ مضحكة، تنتزع الابتسامة من القارىء او السامع انتزاعا مثل قوله على لسان الاصمعي مخاطبا النحوي البصري ابا عثمان المازني عندما سأله عن وزن إوزة ب(فصعل) وغيرها[٦٩].

٢- **الاستطراد**: اطلق المعري العنان لخياله وقلمه في رسالة الغفران، فوصف الجنة وطيباتها، وما أعده الله – جل وعلا – لأهلها من نعيم مقيم وشهوات مطاعة ودعوات مجابة وأسهب في هذه الأوصاف والصفات، واجاد فيها فظهرت الرسالة وكأنها أقرب إلى كتب الجغرافية، او ما يشبه المذكرات وأوصاف الرحالة الذين يجوبون الأمصار والأقطار فيسجلون ملاحظاتهم ومشاهداتهم من افانين الشعر ومخترعات الخيال[٧٠] ومن صوره الاستطرادية الساخرة ذكره للفظة (أباريق) ثلاث مرات جازما بطريق خفي ان ابن القارح لا يستطيع ان يفطن الى مدلولها في كل موضع[٧١] وذلك في قوله ((هيهات هذه أباريق، تحملها أباريق، كأنها في الحسن الأباريق))[٧٢].

٣- **الجمل الاعتراضية الدعائية**: اورد المعري في رسالته الكثير من الجمل الاعتراضية الدعائية، وجاءت جميعها مقترنة بابن القارح موردا في ثناياها السخرية والاستخفاف منه، مثل (أدام الله الجمال ببقائه) وغيرها.

٤- **السجع**: جاءت رسالة الغفران لابي العلاء المعري وهي تصور رحلة خيالية الى الجنة ونعيمها او النار وجحيمها، وهذه الصور تبين مقدار ما تشتمل عليه هذه الرسالة من السخرية الخفية[٧٣] فالسخرية كادت تكون سمة تلوح في صورها، ساخرا مستخفا بابن القارح والدنيا والحياة الاجتماعية وغيرها من تفصيلات الحياة، إذ وشى هذه الرسالة السجع الذي لم يظهر عليه التكلف، وانما زادها حسنا وجمالا وعد من قبيل الوشي الذي وشى صورها، فقد افتتحت الرسالة به مثل:((قد علم الجبر الذي نسب إليه جبرئيل، وهو في

كل الخيرات سبيل ....))[٧٤] ويقول ايضاً: ((وأن في طمري لحِضْبا وكِل بأذاتي، لو نطق لذكر شذاتي، ما هو بساكن في الشقاب ولا بمتشرَف على النقاب، ما ظهر في شتاء ولا صيف، ولا يمر بجبل ولا خيف...))[٧٥].

وبذلك نجد ان السخرية العلائية المتشحة بالغفرانية الممزوجة بالتشكيك هي سخرية متطلعة الى الحرية والرؤيا الفلسفية التي تتهم الواقع، وتومىء برفق الى الافضل. كما جعلت هذه السخرية من التشكيك وليد معرفة، زرع شجر العقل في كل اتجاه، فازدهر واثمر حكما عقليا[٧٦]، مطلقاً العنان للخيال الخصب، فرسم لنا هذا السفر غير المسبوق.

الهوامش:

(١) ينظر: كتاب العين: الخليل بن احمد الفراهيدي, تحقيق د.مهدي المخزومي و د. أبراهيم السامرائي:٤/٤/١٩٦.

(٢) المؤمنون :١١٠.

(٣) الخول: (عطية الله من المنعم) المعجم الوسيط :٢٦٣/١.

(٤) ينظر: كتاب العين :الفراهيدي: ١٩٦/٤.

(٥) لسان العرب: مادة (سخر).

(٦) السخرية في الأدب العربي: د.نعمان محمد امين طه: ١٣.

(٧) المصدر نفسه: ١٤.

(٨) المصدر نفسه والصفحة.

(٩) المصدر نفسه والصفحة.

(١٠) ساعات بين الكتب: عباس محمود العقاد: ١٥٢/١-١٥٣ .

(١١) الفكاهة في مصر: د. شوقي ضيف: ٨.

(١٢) ينظر: السخرية في الادب العربي: نعمان محمد امين طه: ٨.

(١٣) ينظر: المصدر نفسه: ٩.

(١٤) المصدر نفسه والصفحة .

(١٥) نقد الشعر: قدامة بن جعفر: تحقيق كمال مصطفى: ٩٣.

(١٦) ينظر: الفكاهة في الأدب العربي: ٣٥.

(١٧) السخرية في الأدب العربي: ٢٠.

(١٨) ينظر: في الميزان الجديد: د. محمد مندور: ١٤٤.

(١٩) مجلة التراث العربي: إطلالة على السخرية عند أبي العلاء المعري: فوزي معروف (موقع اليكتروني):٥.

(٢٠) مين: المين: الكذب, يقال أكثر الظنون ميون. ينظر اللسان مادة (مَيَنَ).
(٢١) ينظر: مطالعات في الكتب والحياة: عباس محمود العقاد: ١٣٩-١٤٠.
(٢٢) ينظر: السخرية في الأدب العربي: د. نعمان محمد أمين: ٢٥٦.
(٢٣) ينظر: المصدر نفسه والصفحة .
(٢٤) ينظر: مجلة التراث العربي: إطلالة على السخرية عند ابي العلاء المعري: فوزي معروف (موقع اليكتروني): ٦.
(٢٥) ينظر: مع أبي العلاء المعري في سجنه، طه حسين: ٦٣.
(٢٦) ينظر: رسالة الغفران: تحقيق وشرح: د. عائشه عبد الرحمن: ٢٦. ونصر الدولة هو صاحب ميا فارقين وديار بكر وليها عام ٤٠١هـ واستمرت ولايته إحدى وخمسين سنة .
(٢٧) ينظر: أبو العلاء ناقد المجتمع :١٤٩.
(٢٨) ينظر: حديث الأربعاء: طه حسين :١٠٤/٣.
(٢٩) ينظر: إطلالة على السخرية عند أبي العلاء المعري: مجلة التراث العربي (موقع اليكتروني) : ٤، وينظر: أبو العلاء المعري ... ناقدا، وليد محمود خالص: ١٢٩.
(٣٠) ينظر: في الميزان الجديد: محمد مندور: ١٤٤.
(٣١) ينظر: المصدر نفسه: ١٤٥- ١٤٦ .
(٣٢) هذا العدد يشتمل على القسم الأول من الرسالة وهو ما يخص الرد غير المباشر على رسالة ابن القارح .لان الرسالة تقسم الى رد مباشر، كما هو واضح في تحقيق الدكتورة بنت الشاطئ ورد غير مباشر. ينظر تقسيم الدكتورة بنت الشاطئ في تحقيق الرسالة .
(٣٣) رسالة الغفران: تحقيق د. عائشة عبد الرحمن :٢٩.
(٣٤) المصدر نفسه :١٨٥.
(٣٥) حمصيص (محركة، وقد تشدد الميم) بقلة رملية حامضة واحدتها حمصيصة، وخربصيص: هِنة تتراءى في الرمل. ينظر رسالة الغفران: ١٤٦, اما فصعل: من أسماء العقرب، او هو الصغير من ولدها . ينظر ايضا: رسالة الغفران :٢٨٣.
(٣٦) ينظر: المصدر نفسه: ١٥٨ وما بعدها .
(٣٧) ينظر: المصدر نفسه: ١٧٥.
(٣٨) صور المعري ان ابن القارح اخذ يتجول في رياض الجنة، فيرى قصرين كبيرين احدهما لزهير بن ابي سلمى، والأخر لعبيد بن الأبرص فيعجب من ذلك كونهما جاهليين وكذلك الاعتراض على دخول أوس بن حجر النار، وإدخال النابغة الذبياني الجنة، وذلك في قوله على لسان اوس بن حجر (لقد دخل الجنة من هو شر مني، ولكن المغفرة أرزاق..) ينظر رسالة الغفران: ١٨٢, ٣٤١.
(٣٩) ينظر: المصدر نفسه: ١٩٥.
(٤٠) ينظر: المصدر نفسه: ٢٢٨، ٢٥٤, ٢٨٣ .
(٤١) ينظر: المصدر نفسه: ٢٠٦ – ٢٠٧, ٢١١ .

(٤٢) ينظر: المصدر نفسه :١٩٨ .

(٤٣) ينظر: المصدر نفسه: ٢٦١ .

(٤٤) ينظر: المصدر نفسه: ٢٥٦, ٢٦٢.

(٤٥) ينظر: المصدر نفسه: ٢٦٩ .

(٤٦) ينظر: المصدر نفسه: ٢٨٨- ٢٨٩ .

(٤٧) ينظر: المصدر نفسه: ٢٩٣.

(٤٨) ينظر: المصدر نفسه: ٣٠٩.

(٤٩) ينظر: المصدر نفسه والصفحة .

(٥٠) ينظر: شعر المكفوفين في العصر العباسي: ٢٣٨.

(٥١) ينظر: المصدر نفسه: ٢٤٢.

(٥٢) ينظر: المصدر نفسه والصفحة .

(٥٣) رسالة الغفران: ٢٩٤ .

(٥٤) المصدر نفسه: ٢٩٨.

(٥٥) ينظر: شعر المكفوفين في العصر العباسي: ٢٤٧.

(٥٦) ينظر: رسالة الغفران, تحقيق د. عائشه عبد الرحمن: ٢٢٨, ٣٤١ .

(٥٧) اللزوميات: ٢/ ٤٢٣.

(٥٨) ينظر: شعر المكفوفين في العصر العباسي: ٢٥٥.

(٥٩) غفة: البلغة من العيش، وغفة الاناء او الضرع: بقية ما فيه، رسالة الغفران: ٣٠٩.

(٦٠) رسالة الغفران: ٢٨٣.

(٦١) ينظر: شعر المكفوفين في العصر العباسي: ٢٦٣- ٢٦٤ .

(٦٢) ينظر: طبقات الشعراء لابن سلام :٥٩, إذ جعل الأعشى رابع ثلاثة من الجاهليين هم: امرؤ القيس، نابغة بني ذبيان، زهير بن أبي سلمى، والأعشى .

(٦٣) العفارة: الخبث والمكر . مقار: قار الرجل مقارة: قر معه ووافقه, رسالة الغفران: ٢٢٨ ـ ٢٢٩.

(٦٤) تقول: رجل هجاجة: احمق يركب رأيه . رسالة الغفران :٢٣١.

(٦٥) ينظر: مطالعات في الكتب والحياة: عباس محمود العقاد: ١٢٧- ١٢٨ .

(٦٦) ينظر: المصدر نفسه: ١٣٣.

(٦٧) رسالة الغفران :٢٨٨ ـ ٢٨٩ .

(٦٨) ينظر: المصدر نفسه: ١٢٩ .

(٦٩) ينظر: رسالة الغفران: ٢٨٣, وينظر أيضا: إطلالة على السخرية عند أبي العلاء: ٢١.

(٧٠) ينظر: مطالعات في الكتب والحياة: ١١٦.

(٧١) ينظر: السخرية في الأدب العربي: ٢٥٣.

(٧٢) ينظر: رسالة الغفران: ١٤٤.
(٧٣) ينظر: تجديد ذكرى أبي العلاء: ٢٣٦, ٢٣٨ .
(٧٤) رسالة الغفران: ١٢٩.
(٧٥) المصدر نفسه: ١٣١ .
(٧٦) ينظر: رسالة الغفران: تحقيق: د. علي شلق: ١١, ١٦.

المصادر والمراجع

١. القران الكريم
٢. أبو العلاء المعري ... ناقدا، وليد محمود خالص، وزارة الثقافة والإعلام دار الرشيد للنشر، ١٩٨٢م.
٣. أبو العلاء ناقد المجتمع، زكي المحاسني، نشر دار الفكر العربي، د.ت .
٤. تجديد ذكرى أبي العلاء، د. طه حسين، مطبعة المعارف، ط٣، مصر ١٩٣٧.
٥. الجامع في تاريخ الأدب العربي، حنا الفاخوري، منشورات ذوي القربى .ط٢ /١٤٢٤هـ
٦. حديث الأربعاء: طه حسين نشر دار المعارف بمصر، ١٩٦٢م
٧. رسالة الغفران: ابو العلاء المعري (ت ٤٤٩هـ) تحقيق: د. عائشة عبد الرحمن (بنت الشاطئ) نشر وطبع دار المعارف، الطبعة السادسة، مصر، ١٩٧٧م.
٨. رسالة الغفران: ابو العلاء المعري، تحقيق :د. علي شلق, نشر وطبع دار القلم، بيروت، ط٣/١٩٨١
٩. ساعات بين الكتب: عباس محمود العقاد، نشر وطبع مكتبة النهضة . الطبعة الثانية . د.ت .
١٠. السخرية في الأدب العربي :د. نعمان محمد أمين طه، نشر وطبع دار التوفيقية للطباعة بالأزهر، الطبعة الأولى، مصر، ١٩٧٨.
١١. شعر المكفوفين في العصر العباسي: د. عدنان عبيد العلي، نشر وطبع دار أسامة للنشر عمان /الاردن /١٩٩٩.

١٢. طبقات الشعراء: ابو عبد الله محمد بن سلام الجمحي، تحقيق :د. عمر فاروق الطباع، نشر شركة دار الأرقم بن أبي الأرقم. بيروت لبنان: الطبعة الأولى /١٩٩٧م.
١٣. الفكاهة في الأدب العربي إلى نهاية القرن الثالث الهجري، فتحي محمد عوض أبو عيسى، نشر وطبع الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، ١٩٧٠م.
١٤. الفكاهة في مصر، شوقي ضيف، نشر مكتبة الهلال، مصر، ١٩٥٨.
١٥. في الميزان الجديد، د. محمد مندور، نشر دار نهضة مصر بالفجالة، القاهرة ١٩٧٣م.
١٦. كتاب العين: الخليل بن احمد الفراهيدي (ت١٧٥هـ)، تحقيق :د. مهدي المخزومي، د. إبراهيم السامرائي نشر وزارة الثقافة والإعلام – دار الرشيد للنشر والطباعة . العراق /١٩٨٢ .
١٧. اللزوميات (لزوم ما لا يلزم) ابو العلاء المعري، نشر: دار صادر ودار بيروت .د.ت
١٨. لسان العرب: الإمام العلامة أبو الفضل جمال الدين محَمد بن مكرم بن منظور الأنصاري (ت٧١١هـ) نشر دار صادر للطباعة والنشر – بيروت ١٩٦٨م.
١٩. مجلة التراث العربي /أدب/ إطلالة على السخرية عند ابي العلاء المعري، فوزي معروف، موقع (adab com) الالكتروني .
٢٠. مطالعات في الكتب والحياة: عباس محمود العقاد، دار لبنان للطباعة والنشر، الطبعة الثالثة /١٩٦٦.
٢١. مع أبي العلاء في سجنه، د. طه حسين، نشر وطبع مطبعة القاهرة ١٩٣٩.
٢٢. معجم الأدباء: ياقوت الحموي، نشر مطبعة المأمون، الطبعة الثالثة د.ت
٢٣. معجم الوسيط: قام بإخراجه: إبراهيم مصطفى، حامد عبد القادر، احمد حسن الزيات، محمد علي النجار، مجمع اللغة العربية، نشر دار الدعوة استانبول /تركيا/١٩٨٩م.

٢٤. نقد الشعر: أبو الفرج قدامة بن جعفر . تحقيق: كمال مصطفى نشر مكتبة الخانجي، الطبعة الثالثة . القاهرة، ١٩٣٩م.